الهجرة النبوية في المنظور الاستشراقي

حظيت السيرة النبوية باهتمام دوائر الاستشراق منذ قرون، وقد أثمر عن ظهور عدد لا يُحصى من الدراسات الغربية حول الرسول ﷺ ، أسهمت في ترسيخ صورة ذهنية معينة عن الإسلام ونبيه في العقل الغربي، فإلى أي مدى التزم المستشرقون في مصنفاتهم بالحيدة والنزاهة، وهل يختلف منهج قدامى المستشرقين عن الدارسين الغربيين المعاصرين من هذه الجهة، هذا ما أحاول بحثه من خلال تتبع ومقارنة آراء طائفة من المستشرقين القدامى والباحثين المعاصرين حول الهجرة النبوية ، وهم: واشنطن إيرفنج (ت: 1859م)، إميل درمنغهام (ت: 1971)، مونتجمري وات (ت: 2006)، مايكل كوك (1940-...)، كارين أرمسترونج (1945-..)، ورغم تباين منطلقاتهم ومناهجهم وأدواتهم إلا أنهم يقدمون صورة متكاملة عن الهجرة في المخيال الاستشراقي.

آراء حول الاضطهاد

يحرص جميع المستشرقين على تناول المقدمات التي أفضت إلى الهجرة من قبيل، وثمة مقدمتين يتم التركيز عليهما، وهما الاضطهاد وأثره في دفع المسلمين للهجرة، وبيعة العقبة الأولى والثانية.

وأما تعاظم الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون وعلاقته بالهجرة، فهذه المسألة كانت موضع خلاف بين المستشرقين إذ بينما يوافق واشنطن إيرفنج المصادر الإسلامية أن الاضطهاد تزايد بعد بيعة العقبة الثانية وأن الرسول شعر بأن هناك أزمة مقبلة لا مفر منها مع قريش، فاضطر إلى مغادرة مكة تاركا فيها نفر من أتباعه المخلصين[1]، وتؤيده كارين أرمسترونج التي تعتقد أن الاضطهاد كاد يوقف الرسول عن دعوته ، الأمر الذي كان يخشى منه وأد الدين الجديد.

على الجهة المقابلة يفترض إميل درمنغهام أن عدم توفيق الرسول في دعوته لبني قومه كان الداعي وراء الهجرة [2]، ويؤيده مونتجمري وات قائلا" لم تكن هناك سلسلة جديدة متواصلة من الاضطهاد قبل الهجرة، اللهم إذا استثنينا من ذلك حالة أبي سلمة.. وربما تحركت نوازع الاضطهاد بعد ذلك عندما تحقق زعماء قريش مما سيفعله محمد ﷺ[3]، وأما واقعة اتفاق قادة قريش على قتل النبي فليست دليلا على الاضطهاد كما يظن، حيث قام بتأويلها تأويلا مزدوجا حتى تغدو حادثا طبيعيا، فمن جهة تحقق قادة قريش أن الرسول كان يخطط للقيام بنشاطات معادية لهم وهو ما اضطرهم لاتخاذ موقف عنيف، ومن جهة ثانية كان الاتفاق أقل خطورة مما يصوره كُتاب السيرة، فلسنا "متأكدين من طبيعة هذا الخطر ومداه، فالرواية عن الهجرة بشكل عام تتسم بوجود كثير من الزخارف المقحمة، وحتى المراجع الأولى ربما لا تخلو من الإضافات" ويلمح وات إلى أن النبي حرص على حياته وأرجأ مغادرته لمكة، لحين التأكد من أنه سيكون في أمان إذا لا يمكن الاعتماد على حماية مسلمي المدينة وإنما ينبغي التريث لحين وصول المهاجرين إليها[4].

البيعة والتأسيس

ناقش المستشرقون بيعتا العقبة الأولى والثانية المستشرقون باستفاضة، ولا غرابة في ذلك فلولاها لما كانت الهجرة، وثمة نقطتان رئيسيتان يمكن التوقف عندهما في هذا النقاش:

الأولى؛ تتعلق بدواعي أهل المدينة للدخول في الإسلام ومبايعة الرسول ﷺ ، وهي مسألة حاولوا تأويلها بطرق شتى منها؛ أن يثرب كانت تعاني مشاكل اجتماعية بسبب الحروب بين القبائل المختلفة المكونة لها لاسيما الأوس والخزرج، واستنفدت هذه الحروب طاقة كل من اشترك بها وكان لها آثار اقتصادية وخيمة وهكذا رحب أهل يثرب بقادم خارجي قادر على ترتيب الأوضاع ورأب الصدع فيها كما يرجح مونتجمري وات. ومنها أن أهل يثرب كان لديهم استعداد للتوحيد ونفورا من الوثنية بما علموه من جيرانهم اليهود، فلما التقوا محمدا -ﷺ- وجدوا تشابها بين دعوته والدعوة الموسوية، ورأوا أن يسبقوا غيرهم ويبايعونه، وهذا ما يجنح إليه كلا من واشنطن إيرفنج وإميل درمنغهام، وهكذا يتم التلميح أن لليهود لهم فضل في نصرة الدعوة الإسلامية.

والثانية؛ ترتبط بدور البيعة في التأسيس لفكرة الجهاد في الإسلام، وهي مسألة أثيرت مرارا في كتابات المستشرقين الذين رجح بعضهم أن أصل فكرة الجهاد يعود إلى البيعة الثانية أو "بيعة الحرب" كما أطلق عليها، وهذا الربط الخاطئ مبعثه أن المبايعين بايعوا الرسول على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال في كل الأحوال، خلافا للبيعة الأولى التي لم تتجاوز إطاعة الأوامر الدينية، وهو ما يعني مساندته بالسيف في مواجهة قريش وغيرها من القبائل المعادية.

لقد رجح مايكل كوك أن الرسول كان عليه تحمل مشاق الدعوة إلى الله والصبر على المعاملة السيئة التي كان يتلقاها من قريش لكن قبيل الهجرة بوقت قصير، وعقب بيعة العقبة، نزلت آية تبيح له الحرب وهي "أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق" وبعدها مباشرة هاجر الرسول[5]، وهذا المعنى لا يختلف عما ذهب إليه درمنجهام من أن "مبدأ الحرب المقدسة وضع أول مرة في بيعة العقبة الثانية التي تُعرف ببيعة الرجال، كما عرفت بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء، ولم يأذن الله لرسوله قبل هذه البيعة الثانية في امتشاق الحسام، ولم يكن في القرآن قبلها غير الإيصاء بالصبر... [لقد] انقضى زمن احتمال العذاب وولى زمن مقابلة الأذى بالحلم، فعلى الإسلام اليوم أن يغلب أو أن يموت"[6].

والتقط وات هذه الفكرة الأخيرة وبلورها من خلال تساؤله "إلى أي مدى ذهب المبايعون في وعدهم بالحرب، واستمرارهم فيها حال حدوثها... وإلى أي مدى قيد أهل المدينة أنفسهم بمعاداة قريش، أو بعبارة أخرى أكان الترحيب بمحمد في المدينة بمثابة إعلان للحرب على أهل مكة"، وهو يحجم عن الإجابة والإجابة كما يفترض ترتبط بسؤال آخر هو ماذا أعد الرسول ﷺ لأصحابه في المدينة حيث لا يستطيع أن يجعل منهم "ضيوفا عاطلين" على إخوانهم أهل المدينة، ويفترض أنه ليس أمامهم إلا العمل كتجار من خلال القوافل أو شن الغارات على قوافل أهل مكة، ومن الواضح أن الرسول رجح الخيار الثاني، وهكذا يلقي بنا وات في سلسلة من التساؤلات التي يسلم كل منها الآخر وجميعها يفضي إلى إثارة الشكوك في فعل النبي وأهدافه المضمرة، وفي وضوح موقف الأنصار، وحول هذه الجزئية الأخيرة يجنح إلى فرضية أكثر غرابة ألا وهي أنهم قبلوا النبي بينهم بوصفه "كاهنا أعلى" أو قائدا دينيا لأنهم كانوا راغبين في تحقيق سلام داخلي في المدينة، لكنهم لم يقبلوا كافة التعاليم التي أتي بها، ولذلك فقد كانت أعداد الداخلين في الإسلام عن إيمان ويقين قليلة، أما غالبيتهم فقد جعلت بقاءها على دين الإسلام مرهونا بالنجاحات السياسية التي سيحرزها النبي محمد.**[7]**

المجتمع الجديد

حظى حادث الهجرة باهتمام جميع المستشرقين، وليس ثمة فروقات كبيرة في الآراء يمكن أن نجدها ضمن هذا السياق، ولكن هناك اختلاف في عناصر التركيز ومنهج التعاطي معها، كما هو الحال مع مايكل كوك الذي يلتفت إلى كون القرآن لم يطلق على النبي لفظ مهاجر، ربما لأنه قرين بالاضطهاد، على حين كان المصطلح والصيغ المرتبطة به تطلق على أصحابه مرارا " لكنا نجد أن رحيلهم مقدم وكأنه قضية ترحيل أكثر منه خيار" ولا ندري من أين أتى بهذا الفهم، اللهم إلا أن يكون تأول قوله تعالى " أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق" تأويلا تعسفيا باعتبار الإذن الإلهي ترحيل قسري للمسلمين من ديارهم[8].

من جهة أخرى تتفق جميع الأصوات الاستشراقية على نفي بعض المعجزات المصاحبة للهجرة- باستثناء كارين أرمسترونج-، فها هو واشنطن إيرفنج يتشكك في واقعة إلقاء الرسول حفنة من التراب في وجوه المجتمين أمام داره أغشت أبصارهم، وفي مكوث الرسول مدة ثلاثة أيام في الغار دون أن تلحظه قريش، ذاهبا إلى أنه "سواء فسر هذا الأمر بمعجزة أم بغير معجزة فهو أمر غريب".ويشاطره الرأي درمنجهام متهكما على المعجزات التي تمت في الغار كنسج العنكبوت واحتضان الحمامة بيضها قائلا "إنها حوادث تجد لها نظائر في أرض الله كل يوم"، أما مونتجري وات فلا يتوقف عند إنكار المعجزات لكنه يتعدى إلى إنكار الوقائع الثابتة مثل حدوث اجتماع قريش في دار الندوة، ذاهبا إلى أن هناك إضافات تم إقحامها في المصادر الإسلامية ومتجاهلا الآية القرآنية "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ويعتقد المستشرقون على أن الهجرة كانت فاتحة عهد جديد في تاريخ الإسلام، فلقد بدأ الرسول حياة جديدة بوصفه قائدا وزعيما سياسيا على حين تراجع دوره الديني كنبي، وليس أدل على هذا من أن المغازي استنزفت جل وقته في المدينة، ولم يعد يمضي في الصلوات والعبادات ما كان يمضيه في مكة من الوقت الطويل، كما يزعم درمنغهام[9] وبينما حقق الرسول نجاحا سياسيا كبيرا في مواجهة أعدائه بالخارج لم يصادف ذات النجاح في سياساته الداخلية، لقد قادت الهجرة إلى خلق جماعة سياسية مستقلة (الأمة) لعب فيها نظام المؤاخاة الذي يجعل لكل رجل من الأنصار أخا من المهاجرين متجاوزا روابط القرابة والعشائرية التقليدية دورا رئيسا، غير أن هذا لم يمنع المهاجرين من اعتبار أنفسهم متميزين عن غيرهم من المؤمنين، يضاف لذلك أن روح التعصب القبلي لم يكن ممكنا استئصالها بين عشية وضحاها، وهكذا نشبت الخلافات بين الجماعة المسلمة كما تقول كارين أرمسترونج [10].

ويمضي مايكل كوك بعيدا مدعيا أن المجتمع الإسلامي الأول في المدينة أو بعبارة أدق الأمة الإسلامية لم تؤسس على المساواة بين بني البشر "فاللامساواة البشرية مقولة عادية في القرآن، إن داخل الجماعة أو خارجها، فلو غضضنا الطرف عن المكانة المدنية للنساء والعبيد... يؤكد القرآن أنه لا يمكن اعتبار أن أولئك الذين يشاركون في الجهاد مساوون للذين لا يشاركون به"!! إلا أن هذا التمييز على أساس ديني لا يفضي في تقديره إلى خلق نخبة سياسية أو دينية، بل القرآن ذاته يطلب من الرسول استشارة المؤمنين من خلال آلية الشورى، إلا أنه يحد منها بشكل كبير أنه يطلب منهم طاعة الرسول، فالشورى مصممة لمرحلة ما بعد وفاته، وهنا يتجاهل كوك أن الرسول مارس الشورى فعليا والتزم بها في حالات عديدة كما في حالة حفر الخندق.

خلاصة القول، أن الهجرة كانت محل اهتمام المستشرقين القدامى والدارسين المعاصرين، وأن حجم الاتفاق في الرؤى يفوق حجم الاختلاف، إذ لا تزال الرؤى الكلاسيكية الاستشراقية مسيطرة على الدارسين المعاصرين، وإن كان هناك تطور من جهة المناهج حيث يحظى التحليل النظري بأولوية على السرد التاريخي التقليدي، ويتم التوسل بالموضوعية لكنها لم تستطع حجب روح الانحياز والتعصب.

[1] واشنطن إيرفنج، محمد وخلفاؤه، ت: هاني يحيى نصري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999، ص 158

[2] إميل درمنغم، الشخصية المحمدية: السيرة والمسيرة، ت: عادل زعيتر، القاهرة: دار شعاع، 2005، ص 155.

[3] مونتجمري وات، محمد في مكة، ت: عبد الرحمن الشيخ، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ص 290.

[4] المرجع السابق، ص 291-292 .

[5] مايكل كوك، محمد نبي الإسلام، ت: نبيل فياض، بيروت: الرافدين للنشر والتوزيع، ص 77-80.

[6] إميل درمنغم، المرجع السابق، ص157-158.

[7] مونتجمري وات، المرجع السابق، 288-289.

[8] مايكل كوك، المرجع السابق، ص 77.

[9] إميل درمنغم، المرجع السابق، ص 162.

[10] كارين أرمسترونج، محمد نبي لزماننا، ت: فاتن الزلباني، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ص 66.